مفهـــوم الخيـــر في الفكر الإسلامي

د. المهدي أحمد جحيدر
كلية الآداب - جامعة الفاتح

1- تعريف الخير لغوياً وفلسفياً :

الخير في اللغة : ضد الشر ، وجمعه خيور ، وهو خير منك وأخير ، وقوله عز وجل : ﴿تجدوه عند الله خيراً﴾ ، أي تجدوه خيراً لكم من متاع الدنيا ، وخيره : فضله ، ورجل خير والجمع أخيار[1] ، وهو اسم تفضيل كقول المؤذن مثلاً : الصلاة خير من النوم ، وهو يدل على الحسن لذاته ، وعلى ما فيه من نفع وسعادة ، وعلى المال الكثير الطيب ، وعلى العافية والإيمان والعفة ، وهو بالجملة ضد الشر ، لأنه الخير وجدان كل شيء[2] ، وفي الإنجليزية : "Good" وفي الفرنسية "Bien" .

ويقول ابن سينا في تعريف الخير : "الخير ما يتشوقه كل شيء ويتم به وجوده ... والوجود الذي هو دائم بالفعل فهو خير محض ، والممكن الوجود ليس خيراً محضاً لأنه بذاتيته لا يجب له الوجود ، بذاته تحتمل العدم ، وما احتمل العدم بوجه ما فليس من جميع جهاته بريئاً من الشر والنقص ، إذن ليس الخير المحض إلا لواجب الوجود بذاته"[3] .

يقول ابن مسكويه : "الخيرات منها ما هي شريفة من ذاتها وتجعل من اقتنائها شرفاً وهي الحكمة والعقل ... ، والممدوحة منها الفضائل والأفعال الجميلة الإرادية ... ، أما التي هي بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الأشياء التي تقدمت ... ، والخيرات النافعة هي جميع الأشياء التي تطلب لذاتها ... ، والخير منها ما هو مؤثر لأجل ذاته ، ومنها ما هو لأجل غيره ، ومنها ما هو مؤثر للأمرين جميعاً ، ومنها ما هو خارج عنهما"[4] .

---

(1) ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، ج 4 ، ص 264 .
(2) المعجم الفلسفي : جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني بيروت 1983 ، ص 548 .
(3) ابن سينا : كتاب النجاة ، تحقيق : محي الدين الكردي ، القاهرة : ط1975 ، ص 373 .
(4) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ، تحقيق : ابن الخطيب :المطبعة المصرية ؛ القاهرة : 1958 ، ص 91 - 92 .

كما نرى بعض الفلاسفة يطلقون الخير على الوجود ، فيرون أن الوجود خير محض ، والخير هو الوجود فأيهما المضاف إلى الآخر؟ هل الوجود إلى الخير ، أم الخير إلى الوجود؟ العقليون يرون أن الوجود مبدأ الخير ، أما فلاسفة القيم فيرون أن الخير مبدأ الوجود[1] . والخير المطلق عند أغلب الفلاسفة هو الوجود الذي ليس لذاته حد ، ولا لكماله نهاية ، لأنه خير لذاته وبذاته ، فعند "أفلاطون" مثلاً هو أعلى المثل ويسميه بالخير الأعلى ، وعند "أرسطو" هو غاية كل فعل ، وعند "كانط" هو الفعل الذي يلائم الإنسان بكليته لا من جهة ما هو عاقل فحسب ، بل من جهة ما هو عاقل وحساس وفاعل . والخير بالجملة : هو الإحساس الذي تبنى عليه المفاهيم الأخلاقية كلها لأنه المقياس الذي نحكم به على قيمة أفعالنا [2] .

ويرى المتفائلون من الفلاسفة أن الخير عند الإنسان هو الغالب على طبعه لأنه مخلوق على الفطرة الماثلة للخيرات ، والخير في الوجود غالب على الشر[3] .

والخير هو أساس مبحث الأخلاق ، وهو غرض أفعال الإنسان جميعها يقول "أرسطو" في كتابه " الأخلاق إلى نيقوماخوس" : "جميع أفعالنا وجميع مقاصدنا الأخلاقية تظهر أن غرضها شيء من الخير ترغب في بلوغه ، وهذا ما يجعل تعريفهم للخير تاماً إذا ما قالوا إنه موضوع جميع أفعالنا"[4] .

وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم بصور شتى منها "خير – خيراً – الخير – والخيرات" ، ولها مدلولات ومعان عدة سنعرض لها في الحديث عن مفهوم الخير في "الكتاب والسنة" .

وفي الفكر الفلسفي على وجه التحديد هناك اتجاهان أو تصوران لمفهوم الخير ، تصور موضوعي وتصور ذاتي ، فالتصور الموضوعي للخير يعتبر الخير مطلقاً ثابتاً في كل زمان ومكان . فأفلاطون مثلاً يرى الخير ذروة العالم المثالي والمبدأ الأسمى ، وهو فرق

(1) جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، مرجع سابق ، ص 549 .
(2) جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، مرجع سابق ، ص 550 .
(3) نفس المرجع السابق : ص 550 .
(4) الموسوعة الفلسفية العربية ، معن زيادة ؛ معهد الإنماء العربي ؛ بيروت ط1 1988 ، ص417 .

الوجود ، ومن مفاهيم التصور الموضوعي للخير أيضاً : "الإرادة الخيرة" والتي تعد محور القيم الأخلاقية ، فهي تقابل مفهوم الواجب عند "كانط" الذي يقدم "الإرادة الخيرة" على الخير باعتبارها المبدأ الأخلاقي الأول ، فالإرادة الخيرة هي فقط ما يمكن اعتباره خيراً دون قيد أو شرط من بين موجودات هذا العالم ، ورغم وجود طبيعة كالذكاء والحظ والمال والسلطة لكنها في نظر "كانط" ليست خيرات في حد ذاتها ، فقد تستخدم للخير ، وقد تستخدم للشر[1] .

وعند أهل العدل "المعتزلة" في نظرية الحسن والقبح "الخير والشر" يرون أن الأفعال تحمل خصائص ذاتية تجعلها خيراً أو شراً ، والله يأمر بالخير لأنه حسن في ذاته ، وينهى عن الشر لأنه قبح في ذاته ، ويرون أن العقل بالطبيعة استطاع أن يميز بين الخير والشر قبل ورود الشرع ، يسلم بهذا الموقف في الفلسفة المعاصرة "مدرسة أفلاطونيي كمبردج" . أما أهل السنة "الأشاعرة" فقد أرجعوا الخير والشر إلى إرادة الله . فالخير هو ما حسنه الشرع ، والشر هو ما قبحه الشرع[2] . أما التصور الذاتي للخير فهو تصور نسبي ، ويشمل تقريباً معظم المدارس الطبيعية والحسية في الفلسفة الخلقية ، فالخير عندهم نسبي قد اعتاد البشر عليه من خلال تجاربهم المشتركة والظروف التي تحيط بهم ، وبذلك اختلف مفهومه باختلاف المجتمعات واختلاف الزمان والمكان . فما يعتقد خيراً في مجتمع ما ، وفي زمان ما ، قد يكون غير ذلك في مجتمع آخر وفي زمان آخر . ففي الفلسفة اليونانية مثلاً : نرى السوفسطائيين يؤكدون هذا المذهب ، وفي الفلسفة الحديثة والمعاصرة نجد مثلاً : "بنتام" و"جون استورت مل" أصحاب مذهب المنفعة العامة ، وكذلك أصحاب المدرسة الاجتماعية الوضعية ، يرون نسبية مفهوم الخير . أما في الفلسفة المعاصرة على وجه العموم فنجد موقفين أساسيين في دراسة مفهوم الخير :

الموقف الأول :

يجعل من مفهوم الخير علماً يخضع لمجال الدراسة والبحث ويسمى "بموقف الإدراك" ، وداخل هذا الموقف اتجاهان - **الاتجاه الأول** : تجريبي طبيعي ، ومن أهم

(1) الموسوعة الفلسفية العربية ، مرجع سابق ص 418 .

(2) نفس المرجع السابق ، ص 419 .

فلاسفته : "جون ديوي" و"رالف بيري" . ومفهوم الخير في هذا الاتجاه يتفق مع العلوم الطبيعية كما يخضع للملاحظة والتجربة .

أما **الاتجاه الثاني** : فهو اتجاه الحدسيين الذين يقبلون الجانب الوجداني في الأخلاق ، ويرون أن دراسة الخير يجب أن تتم بالاعتماد على الحدس السابق على التجربة .

وبالجملة فإن أصحاب هذا الموقف "الإدراكي" يفترضون وجود علم للخير وإن كان نوعاً خاصاً من العلم[1] .

الموقف الثاني :

وهو ما يسمى بالموقف (اللاإدراكي) فيتمثل في اتجاهات مختلفة نذكر منها على سبيل المثال : الوضعية المنطقية والمدرسة الانفعالية . فأصحاب الوضعية المنطقية يرون أن الحكم على "المفهوم" هو مجرد تعبير عن حالة عقلية تشير إلى حبنا لنوع معين من السلوك ، مع رغبتنا في أن يسلكه غيرنا . وهذه الحالة لا يمكن وصفها بالصدق أو الكذب أي ليس لها معنى يدرك" .

أما أصحاب المدرسة الانفعالية فيرون أن المفاهيم الأخلاقية مثل مفهوم الخير : هي معنى وجداني عاطفي ، فالطابع الانفعالي هو السمة المميزة لمعنى الخير ، وليس له أي معنى تصوري[2] .

2- مفهوم الخير في الفكر الإسلامي :

الإبداع الحضاري للإنسانية منذ القدم هو إبداع تراكمي يستفيد منه الإنسان حيثما وجد وأينما كان ، فقد يبدأ الثاني من حيث انتهى الأول ، وقد يأتي الثالث ليفسر ويوضح ما أتى به كل من الثاني والأول ، وقد يأتي الرابع ينقد ، وهكذا دورة الحضارات . والفكر الإسلامي فكر مفتوح فقد استفاد من تجارب الحضارات السابقة في كافة العلوم الإنسانية ، وخاصة في مسألة القيم الإنسانية .

---

(1) الموسوعة الفلسفية العربية ، مرجع سابق ، ص 419 .

(2) نفس المرجع السابق : ص 419 .

فالحضارة الإسلامية تحاورت مع بقية الحضارات فأثرت وتأثرت ، وبالتالي فهي حضارة مفتوحة أعطت كما أخذت ، وفي الوقت نفسه احتفظت بسماتها الأساسية والمميزة لها ، ومرجعيتها المحورية ألا وهي "كتاب الله وسنة رسوله ﷺ" .

والذي يهمنا في هذا المجال هو قضية هذا التأثر بالحضارات السابقة وبالتحديد الحضارة اليونانية ، فما طبيعة هذا التأثر؟ وما مداه؟ وكيف تعامل مفكرو الإسلام في مسألة القيم الأخلاقية؟ هل تمت المعالجة على نفس النسق السابق؟ أم كان لها أسلوب آخر؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هو الأسلوب أو المنهج الذي تم استحداثه لمعالجة هذه المسائل؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه خلال هذه الدراسة في المفاهيم المطروحة ، والآن نلقي بعض الضوء على ما جاء في الفكر الإسلامي في مفهوم الخير .

أ- مفهوم الخير في الكتاب والسنة :

وردت كلمة الخير في آيات كثيرة من القرآن الكريم وبمعان عديدة ، فعلى سبيل المثال وردت بمعنى : ما فيه نفع وصلاح ، قال تعالى : ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [2] .

كما وردت بمعنى : ما هو أداة للنفع والصلاح وذلك في قوله تعالى : ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [3] ، كما وردت اسم تفضيل في قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [4] ، وعلى وجه العموم وردت كلمة الخير بتعريفاتها المختلفة في آيات كثيرة ومتعددة المعاني فهي كلمة جامعة لكل معاني البر ، وبالتالي فلا نجد في القرآن الكريم معان محددة لكلمة الخير ، ولكن نجد الدعوة إلى الخير والحض عليه كذلك الحض على العدل والتقوى والصدق والعفة والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ... الخ ، ولكن كثيراً ما يكون الإنسان عجولاً كما وصفه القرآن ، فالذي يعلم

---

(1) (البقرة 158) .

(2) (آل عمران 110) .

(3) (البقرة 215) .

(4) (البقرة 54) .

الخير الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى فيقول : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] . ومعنى ذلك أن الله يعلم الخير والشر حقيقة دون الإنسان الذي أحياناً تختلط عليه الأمور بين ما هو شر وما هو خير ، والقرآن يجيب على هذا التساؤل بمنتهى الدقة ، فهو يأمر بأشياء وينهى عن أشياء ، ولكنه يبرر ذلك ، فمثلاً في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[4] ، وهكذا نجد معظم الأفعال في القرآن الكريم مبررة بأسباب معينة ولها خصائص تتميز بها[5] . وقد ورد في السنة النبوية عن سهيل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن هذا الخير خزائن ، ولتلك الخزائن مفاتيح ، فطوبى لعبد جعله الله عز وجل مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر ، وويل لعبد جعله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير" صدق رسول الله . رواه ابن ماجه [6] .

ب- مفهوم الخير عند المتكلمين :

بعد الفتح الإسلامي لكثير من الأمصار سواء كانت شرقاً أم غرباً أصبحت للدولة الإسلامية ثقافات مختلفة بالإضافة إلى ما جاء به الإسلام من قيم وما أكد عليه ونتج عن ذلك صراع ثقافي ديني فكان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى ظهور الفرق الكلامية أو الاعتقادية . والآن نحاول أن نتتبع مفهوم الخير عند من ورد لديهم هذا المفهوم .

*** المعتزلة :**

تكاد تكون فلسفة المعتزلة في حقيقتها دفاعاً عن المعتقدات الدينية حيث واجهت هذه الفرقة في دفاعها عن الإسلام عدة معتقدات وديانات أخرى وخاصة في مسألة الخير

---

(1) (البقرة 216) .

(3) (الإسراء 11) .

(4) (الإسراء 34) .

(5) مجدي محمد رياض : الفلسفة الخلقية عن الأشاعرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 1983 ، ص 88 .

(6) رواه ابن ماجه .

والشر الميتافيزيقي ، فقد فرق المعتزلة بين مفهوم الخير ومفهوم الشر أو ما يسمونه "بالحسن والقبيح" وما يتبع ذلك من نفع وضرر ، فالخير عندهم ما يقود إلى نفع ، وقد لا يكون النفع أو الخير آنياً ولكنه يقود إلى نفع أعم وأكبر ، فالمعيار المعتزلي لما هو خير مرتبط بالنفع ، والخير أيضاً صفة للفعل بمعنى أنه حقيقة موضوعية ، فاتصاف الفعل بخاصية معينة يحدد بالضرورة كونه أي "الفعل" خيراً أو شراً ، وبالتالي فإن العقل الإنساني قادر على الحكم بحسن الأفعال "خيرها" أو قبحها "شرها" دون انتظار لما ورد في الشرع ، بل نجد الشرع يأتي ليجيز بما يطابق العقل[1] . والجدير ذكره أن المعتزلة اتخذوا منهجاً يتسق مع تفكيرهم العقلي ، ومثال ذلك في وصف الأفعال ، حيث استبدلوا لفظا "الخير والشر" "بالحسن والقبيح" ، وتبرير ذلك أنه ليس كل خير حسناً ، وليس كل شر قبيحاً ، لأن الفعل يوصف بأنه شر إذا كان ضرراً ، ولو كان نفعاً قبيحاً لم يوصف بذلك . فالله قد تنزه عن كل قبيح ، ومن ثم فأفعاله لا تكون إلا حكمة وصواباً ... فالأفعال التي يمكن أن توصف بالحسن والقبح إنما تحسن وتقبح لوجوه عائدة إليها[2] .

ومما يدل على أن الحسن صفة ذاتية للفعل الحسن ، وكذلك القبح للفعل القبيح : هناك أفعال لا صفات لها مثل الطعام والشراب وفعل النائم مثلاً ، أما بقية الأفعال فهي محل حكم أخلاقي كالتحليل والتحريم والحظر والمدح والإباحة .

وترى المعتزلة أن الخير خير في ذاته ، وأن الشر شر في ذاته أيضاً ، وأن إرادة الله تميل حتماً نحو الخير . ولما كان في استطاعة العقل إدراك الخير والشر فلا يجوز أن يأتي الوحي مخالفاً للعقل ، بل متمماً له ، ومن لم يأتهم تنزيل من الله يستطيعون أيضاً أن يميزوا بين الخير والشر بواسطة عقولهم الناضجة ، والدليل على ذلك أننا نلاحظ كثيراً من العقلاء يستحسنون مثلاً إنقاذ الغرقى ، ويستهجنون الظلم والعدوان ويرون "أن الصفة الذاتية للفعل ليست عدمية ، فلا يحسن الفعل لمجرد انتفاء وجوه القبح ولا يقبح

---

(1) نوران الجزيري ، قراءة في علم الكلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 1992 ، ص 227 .

(2) أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ، دار المعارف المصرية ؛ القاهرة 1969 ، ص 128 .

لمجرد انتفاء وجوه الحسن منه ، وإنما يحسن ويقبح لصفة زائدة مثبتة فيه ... والفعل كاشف عن وجوه الحسن والقبح في كل فعل بعينه"[1] .

ويميز المعتزلة بين نوعين من المعرفة في الأفعال ، معرفة أنواع الخير في الفعل الخير وذلك يحتاج إلى برهنة ودلائل ومعرفة أن هذه الأنواع الخيرية في الفعل تجعل الفعل خيراً وذلك يعرف بالبداهة ، يقول "الشهرستاني" : "لو قدرنا إنساناً قد خلقه الله تام الفطرة كامل العقل دفعة واحدة من غير أن يتخلق بأخلاق قوم ولا يتأدب بآداب الوالدين ولا يتزين بزي الشرع ولا تعلم من معلم ، ثم عرض عليه أمران : أحدهما أن الاثنين أكثر من الواحد ، والثاني أن الكذب قبيح بمعنى أنه يستحق من الله لوماً عليه ، ولم نشك أنه لا يتوقف في الأول ويتوقف في الثاني ... ومن حكم بأن الأمر سيان بالنسبة لعقله خرج عن قضايا العقول"[2] .

كذلك الضرورة معرفة ما عليه من حسن الفعل أو قبحه ، فذلك شرط الفعل ، ومعنى ذلك أنه علم الإنسان الفعل أو شره ، كان ذلك داعياً للفعل أو تجنبه ما لم تعارضه الغرائز ، ولتوضيح ذلك مثلاً : " قلنا الإنسان عاقل إذا صدقت "أعطيناك ديناك ديناراً وإذا كذبت أعطيناك ديناراً ، وفرضا حصول الاستواء بين الصدق والكذب في جميع منافع الدنيا والآخرة ، وفي جميع مضارها من المدح والذم والثواب والعقاب ... فإن في هذه الصورة نعلم بالضرورة أنه يرجع الصدق على الكذب ، وذلك يدل على أن جهة الحسن جهة دعاء ، وجهة القبح جهة صرف ، وتكون علة الترجيح علمه بأن هذا حسن وذاك قبيح"[3] . وليس معنى ذلك أن معرفة الفعل الحسن تكون سبباً كافياً للعمل به ، أو معرفة الفعل القبيح مبرراً للابتعاد عنه ، وإنما المعرفة هي جزء من الدواعي لاختيار الفعل والقدوم عليه ، فالمعرفة وحدها لا تكفي للإقدام على الفعل . " وهذا التقديم هو نقد موجه لسقراط في مسألة" العلم فضيلة والجهل رذيلة" .

---

(1) أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص131 .

(2) الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام ، تحقيق ألبير جيوم ، مكتبة زهران ، ص 371 ، عن أحمد صبحي : المرجع السابق ، ص132 .

(3) أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص133 .

كما نرى أن بعض الأفعال لا يلزم عنها مدحاً ولا ذماً ، وخاصة عندما يكون الفاعل غير قاصد ، فإذا ركل النائم رجلاً فهو فعل قبيح ولا يستحق عليه الذم . وترى المعتزلة أن الأفعال لا يمكن أن تحسن أو تقبح لوقوع الأمر والنهي عليها ، وذلك كما يرى الأشاعرة ، فالأمر والنهي دليلان على حال الفعل ، والدليل يدل على أن الشيء على ما هو عليه به ، لا أنه يصير على ما هو به بالدلالة ، فذلك الأمر والنهي إنما يدلان على الحسن والقبيح ، وليس أن الحسن والقبح متعلقان بهما [1] .

ومعنى ذلك تريد فرقة المعتزلة أن توضح أن الحسن والقبح هما كذلك قبل توضيح الشرع لهما ، وليس لمجرد أن قال الشرع إن هذا قبيح ونهى عنه فكان الأمر كذلك ، أو أن هذا حسن فأمر به فكان الأمر كذلك . وتؤكد المعتزلة أنه لو كانت الأفعال بالأمر والنهي تحسن وتقبح ، لوجب أن تحسن أفعال النائم والغائب عن الوعي وذلك لانتفاء النهي عنهما .

ومن خلال ما تقدم نرى أن المعتزلة تقر بوجود " خير مطلق" وبالتالي وجود " شر مطلق" ما دام الاثنان يرجعان إلى صفات الأفعال الذاتية التي يكشفها العقل ، والتي لا تتغير بالاعتبارات المختلفة ، وتبدو آراء المعتزلة متفقة مع آراء الفلاسفة العقليين والاتجاه العقلي ، وذلك يرجع إلى قدرة العقل في إدراك صفات موضوعية للأفعال تجعلها متصفة بكونها خيرا أو شرا ، فالعقل بذاته قادر على استيضاح الحسن والقبح بالضرورة دون إثبات الشرع لهذا المفهوم أو ذلك ، إذ أن الصفات مدركة بالعقل كحسن الصفات الحميدة في الجود والكرم . والشرع يأتي ليستكمل تلك المفاهيم ويوضح للعقول ما خفي عنها ، والشرع بذلك متفق ومكمل لما تقرر في العقول[2] .

وهل معنى ذلك أن قيمة الخير مطلقة وكذلك الشر؟ ترى المعتزلة أن الأحكام العقلية ليست مطلقة ، وذلك أنه ما من شيء يستمر على حال واحدة في مختلف الوقائع والأحوال ، وبالتالي قد يحسن كذب بعينه كما قد يقبح صدق بعينه ، وقد يختلف السبب لفعلين متماثلين ، فالقتل ظلماً غير القتل حداً أو قصاصاً .

---

(1) نفس المرجع السابق : ص134 .

(2) أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص135 .

وقد يختلف الفعل باختلاف الزمان فيحسن ما كان قبيحاً ويقبح ما كان حسناً ، وقد يختلف الفعل أيضاً لاختلاف القدرة ، وقد تختلف الكمية ، وبالتالي وجب تقدير الفعل باختلاف الزمان والمكان والعلة ، والقدرة في الحكم على الفعل ، وذلك لأنه إذا اختلف الفعل في وجه من الوجوه فقد أصبح غير الفعل ، والعقل هو الذي يكشف عن وجوه الحسن والقبح في كل فعل معين[1] .

ولكن هل معنى ذلك أن القيم نسبية عند المعتزلة؟ أم مطلقة؟ يمكن القول إن المعتزلة في قولهم بذاتية الحسن والقبح في الأفعال الخلقية لا يذهبون إلى أنها أحكام مطلقة ، وهذا بخلاف ما ذهب إليه " كانط" فيما بعد من صورية الأوامر الخلقية وعدم استنادها إلى شرط . إن ما يستمر على حد واحد من الأفعال هو ما يتعلق بأفعال القلوب فحسب . دون أفعال الجوارح فإن معرفة الله لا تكون إلا حسنة دائماً ، وكذلك معرفة وجوه الواجبات العقلية وتوطين النفس على القيام بها على جهة الجملة دون تعيين أو تفضيل . أما أفعال الجوارح فقد تتغير فتكون بمنزلة تغير الأفعال ذاتها [2] .

والمعتزلة في هذا الشأن كسائر المسلمين يسلمون بالشرائع وذلك يعني تغير الأحكام ونسبية القيم .

ويرتبط الحسن والقبح العقليان عند المعتزلة بمفهوم العدل الإلهي ، وذلك أن الله عالم بقبح القبيح ، كذلك امتنع أن يكون فاعلا للقبح .

وترتبط نظرية المعتزلة في الحسن والقبح بنظريتهم الأخلاقية ، فإذا كان الفعل لا يحسن أو يقبح للأمر والنهي أو المدح والذم ، وإنما يأتي ذلك كله تبعية ولا يتقدم عليه ، فإنه ينبغي أن يأتي الإنسان الفعل الحسن ، لا للمدح المترتب عليه أو الثواب ، وأن ينصرف عن الفعل القبيح لا لأنه يذم أم يعاقب عليه ، وإنما هي مفاهيم عقلية يمليها العقل ، وهذا ما يشبه رأي "كانط" في نظرية الواجب الأخلاقي ، غير أن المعتزلة تقدر في الأفعال اختلاف الزمان والمكان والعلة والقدرة ، وبالتالي تغاير الأفعال وتباين

---

(1) نوران الجزيري : قراءة في علم الكلام ، مرجع سابق ، ص228 .

(2) أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص139 .

الحكم عليها والعقل وحده هو الذي يكشف وجوه الحسن والقبح في كل فعل معين ، ومن ثم ينبغي النظر والتأمل لاستخراج مواضع الحسن والقبح في الأفعال[1] .

فالمعتزلة اعتمدت في مفهوم الخير " الحسن" على فكرة الضرورة في الأحكام الأخلاقية ، ومعنى ذلك أن العقل يدرك بالضرورة ما هو الخير وما هو الشر . ولكنها لم تغال كثيراً ، فقد أعطت لمعطيات الواقع شيئاً من الأهمية ، خاصة في اختلاف الأحوال ، وليس كما ذهب " كانط" في مسألة " قانون الواجب والأمر المطلق " فالمعتزلة جمعت بين الضرورة - وذلك في معرفة العقل للخير والشر - وبين الواقع وتغير الزمان والمكان والقدرة والعلة .

فالإنسان عن طريق عقله يفعل الخير لذاته ، ويتجنب الشر لذاته ، ولكن ضرورة الحياة قد تستوجب عدم القدرة على الاستغناء عن كل وجوه النفع ، حيث تصير أكثر أفعال الإنسان لشيء يخصه أو حاجة يقضيها ، ولكن هذا لا يمنع أن الإنسان إذا ما قدر على فعل الخير لذاته فعله .

فلسفة المعتزلة الخلقية وخاصة في مفهوم الخير لا تطلب النفعية ولا تعرض عنها أيضا ، ولا تسعى إلى المثالية وإنما تقف موقف المعتدل بين الضروريات واستقراء الواقع ، فهي تعرض قيماً ومثلاً عليا يصعب على الإنسان أحياناً تحقيقها ، ولكنها لا تتجاهل إنسانية الإنسان في كونه تواقاً لقيم سامية .

مفهوم الخير عند الأشاعرة :

كثيراً ما تجنب الأشاعرة الخوض في القضايا العقلية الصرفة ، وخاصة مسألة التأويل ، فهم يؤمنون " بظاهر النص" ويسلمون بالشرع كما جاء دون أي محاولة للتأويل أو استخدام العقل للخوض في بعض المسائل الفلسفية أو الدينية ، وذلك عكس فرقة المعتزلة ، أما ما يخص مسألة الخير والشر وهم يسمونها أيضاً " بالحسن والقبح" فهم يرون أن الحسن ما حسنه الشرع والقبح ما قبحه الشرع ، وليس للعقل أي مجال في تقدير الأفعال وجعلها حسنة أو قبيحة ، فليس للأفعال خصائص ذاتية تميزها وتجعلها قبيحة أو حسنة .

(1) أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص140 .

ويقول الإمام " أبو المعالي الجويني " : " فالمعنى بالحسن ما ورد بالشرع بالثناء على فاعله ، والمراد بالقبح ما ورد بالشرع بذم فاعله"[1] . كما يذهب الأشاعرة إلى نفي الصفة عن الفعل ، فليس في الأفعال الحسنة والقبيحة صفات ذاتية ، الأمر الذي يجعلنا ندرك بالعقل الأفعال قبل ورود الرسل يقول " الشهرستاني" في هذا الصدد : " إن الأمر ليس هو من قبيل الصفات الذاتية للأفعال ، وإنما هو قبيل الموضوعات التي يتواضع عليها الناس بسبب ما ينشأوا عليه من تربية وشرائع يعتقدونها وأخلاق يتخلقون بها تؤدي بهم إلى تسميتهم ما يضرهم قبحاً وما ينفعهم حسناً ، الأمر الذي نرى معه اختلاف أمثال تلك الأسامي ... وما يختلف بتلك النسب والإضافات لا حقيقة له في الذات ، فربما يستحسن قوم ذبح الحيوان ، وربما يستقبحه قوم ، وربما يكون بالنسبة إلى قوم في زمان ومكان آخر حسناً وربما يكون قبيحاً" [2] . والأشاعرة ترى ضرورة ارتباط الحسن والقبيح في الأفعال بالنفع والضرر ، فالفعل الحسن هو المرتبط باللذة لفاعله ، والفعل القبيح هو المرتبط بالألم لفاعله ، كذلك الفعل الحسن هو صفة الكمال ، والفعل القبيح هو صفة نقصان ، وبهذا المدلول يرى الأشاعرة أن العقل له تصور لتلك المعاني ، وإن كان هذا لا يعني كون الحسن أو القبح موضوعياً لهذه الأفعال ، بل هو وفق ارتباطها بتلك العوامل النسبية ، فالحكم عليها نسبي أيضاً من العقل ، فالحكم لا يصح إلا من الشرع ، لأن تلك الصفات للأفعال لا تحمل أي حقيقة موضوعية [3] .

ويرى "فخر الدين الرازي" "أن الحسن والقبيح عقليان في أفعال العباد دون أفعال الله ، فالمحبوب ما تميل إليه النفس لإفضائه للذة والسرور ، والمكروه إنما يكون مكروهاً لانتهائه إلى الألم ، فالمحبوب لذاته هو اللذة والسرور ، والمكروه لذاته هو الألم"[4] .

---

(1) أبو المعالي الجويني : الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، تحقيق : محمد يوسف موسى وآخرون : مكتبة الخانجي ، القاهرة : 1950 ، ص258 .

(2) الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام ، مرجع سابق ، ص235 .

(3) سيف الدين الآمدي ، غاية المرام في علم الكلام ، تحقيق : حسن محمد عبد اللطيف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة 1991 ، ص233 .

(4) فخر الدين الرازي : المطالب العالية في العلم الإلهي ، ج 3 ، تحقيق : أحمد حجازي السقا : بيروت ، 1978 ، ص 348 .

والرازي يؤكد أن هذا التصديق لا بد أن يكون مسبوقاً بتصور عقلي ، فارتباط المحاسن "الحسن" بحصول المنافع يؤكد على تصور العقل له حيث يرى "الرازي" أن القبح والحسن معان عقلية للأفعال الإنسانية ، وبالتالي يختلف مع الرأي "الأشعري" وقد يتفق مع آراء "المعتزلة" في إثبات الحسن والقبح العقليين فيما يتعلق بأفعال العباد دون أفعال الله ، فيقول : "إن الذي يتخيله هؤلاء "المعتزلة" من الحسن والقبح قد صدقوا فيه ، إلا أن حاصله يرجع إلى الرغبة في جلب المنافع ودفع المضار ، ولما كان ممتنع الثبوت في حق الله تعالى ، كان إثبات الحسن والقبح في أفعال الله وفي أحكامه محالاً باطلاً"[1] .

ويتضح مفهوم الخير عند الأشاعرة في ردهم على "المعتزلة" وفي البراهين والحجج التي قدموها في تقييم أدلة المعتزلة ونقدها في أن الخير والشر (الحسن والقبح) مفهومان عقليان ، فالأشاعرة رفضوا قول المعتزلة بأن الحسن والقبح مفهومان ومدركان بالعقل ضرورة . وترى الأشاعرة أن القول بالحسن والقبح صفات ذاتية للأفعال "حكم" غير مقبول ، فقد يبدو قبيحاً غير أن الشرع يحسنه وذلك مثل ذبح الماشية ، فالله يثيب عليه ، فكيف يكون الحسن والقبح صفات ذاتية للأفعال[2] .

ومن براهين المعتزلة على أن الحسن والقبح مفاهيم عقلية للإنسان ومعان موضوعية للأفعال – أن الإنسان ميال بفطرته إلى سلوك طريق الصدق وهو الفعل الحسن .

رفض الأشاعرة هذا التفسير المعتزلي لميل الإنسان الفطري "مثلاً" لإنقاذ غريق أو نجدة مستغيث دون ارتباط ذلك بجزاء . فالعاقل يفعل هذا وإن لم يبلغه الشرع ، يرى الأشاعرة أن تفسير هذا السلوك الإنساني بأن "العادة" قد ورثت في نفس الإنسان ارتباط مثل هذه الأفعال بتوقع المدح والثناء فيميل بطبعه إلى هذا الفعل تحت هذا الوهم ، كما أنه قد يتخيل نفسه في ذات الموقف فيندفع للإنقاذ ، وإن مثل هذه السلوكيات والأفعال إنما ترسخ من العادة والمحاكاة ، فلو بقي الإنسان منذ نشأته منعزلاً دون أن يعلم شيئاً مثلاً فإنه يصبح عاجزاً عن إدراك أي معنى للحسن أو القبح[3] .

---

(1) المصدر السابق : ص 351 .

(2) الآمدي : المصدر السابق ، ص 235 – 236 .

(3) الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام ، مصدر سابق ، ص 371 .

وتذهب الأشاعرة في تأكيد قصور العقل الإنساني على الحكم الموضوعي لحسن الأفعال أو قبحها : إلى أن الحكم على الأشياء يرتبط نتيجة التكرار بالعادات المتكونة لديه ، إذ أن العادة تولد لدى الإنسان ارتباطاً بين الأشياء وبين معنى الحسن أو القبح ، فقد يخاف الإنسان من حبل "مبرقش" لارتباطه عنده "بالحية" ، وبالتالي تكون الصفات ليست موضوعية في الأشياء ويكون الحكم العقلي غير واضح[1] . كما تشير الأشاعرة إلى أن الأحكام العقلية على الأفعال بالحسن والقبح غير ممكن ، فإن القول بمفهوم حقيقي وموضوعي يضفي على الفعل صفة الحسن أو القبح أمر غير مقبول نظراً لنسبية القيم والأحكام من شخص إلى آخر ، ومن زمان إلى غيره ، فالأحكام تعد نسبية بدليل نسخ الشرائع لبعض ما تأتي به من قيم وأحكام[2] .

ولعل في قول الأشاعرة هذا – أن الأحكام العقلية على الأفعال بالحسن والقبح غير ممكن – يؤدي إلى إسقاط أي معنى للخير والشر ، وقد يصبح الخير شرا ويعد الشر خيراً ، وذلك في غياب المعيار الموضوعي حيث تستوي كل الأفعال من حيث كونها خيراً أو شراً ، وبالتالي قد يتعذر علينا أن ندرك حقيقة ما يخاطبنا به الشرع في غياب المعيار الموضوعي ، وقد يتعذر علينا أيضاً أن نحكم بالقياس في قضايا قد تجد علينا ولا نجد لها حكماً في الشرع ، وبالتالي لا نستطيع أن نصل إلى أحكام شرعية منبثقة من الأصول الشرعية ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى إسقاط معنى الاجتهاد .

وقد تعرضت آراء الأشاعرة في مفهوم الخير (الحسن) لكثير من أوجه النقد ، منها مثلاً ، قول "القاضي عبد الجبار " إن الله يأمر بفعل ما لأنه حسن ، وليس الفعل حسناً لأن الله أمر به . فالله تعالى ينهى عن القبح ، وليس الفعل يقبح لمجرد النهي عنه ، وكأن الفعل يحسن ويقبح لمجرد الأمر به أو النهي عنه ، لجاز أن يكون أمراً بما ليس حسناً ونهياً عما ليس قبيحاً ، ثم يصبح حسناً عندما يؤمر به أو قبيحاً عندما ينهى

(1) أبو حامد الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، دار الكتب العلمية ، بيروت : ط1 ، 1983 ، ص 106.

(2) الآمدي : مصدر سابق ، ص 236 . انظر أيضاً : الشهرستاني : نهاية الإقدام ، ص 389 .

عنه . يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ سورة النحل ، آية (90) ، وقوله تعالى : ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ النحل ، آية (90)[1] .

فرفض الأشاعرة لوجود معنى موضوعي للخير يمكن للعقل أن يدركه ، وأن الحسن ما حسنه الشرع - هذا المبدأ يؤدي إلى عدم إمكانية تصور الخير كقيمة مطلقة . فإذا كان الخير ليس سوى ما أتى به الشرع لكي يمر به ، فكيف يمكن إدراك أي معنى للخير والكمال في العالم ، إذ أنه وفقاً لرفضهم القول بوجود معنى موضوعي للخير - فإن ذلك معناه سد الطريق أمام إمكانية تصور ما يجب أن يكون ، وأن قدرة العقل على إدراك وجود الخير والكمال تصبح أمراً بلا معنى ولا فائدة لها .

ج- مفهوم الخير عند الفلاسفة المسلمين :

أثر الصراع الفكري والثقافي الذي اشتد بين الفرق الإسلامية في مجموعة من القضايا الفلسفية ، وظهور حركة الترجمة في القرن الثاني الهجري ، حيث اطلع مفكرو الإسلام على ما أبدعه العقل الإنساني في الحضارات القديمة ، وعلى وجه الخصوص الفلسفة اليونانية ، بالإضافة إلى ما نتج عن حركة الصراعات الفكرية والمذهبية ، وخاصة في القرن الأول الهجري ، وما أتى به القرآن والسنة . أثمرت هذه الحصيلة في الفكر والفلسفة وفي الحضارة الإسلامية ، مما أدى إلى ظهور كثير من المفكرين والفلاسفة ، نختار منهم مجموعة على سبيل المثال لا الحصر لإلقاء الضوء على مفهوم الخير - لديهم- كقيمة خلقية ونقف على مدى تأثير الفكر اليوناني في اتجاهاتهم ومدى تأصل الفكر الإسلامي في معتقداتهم ، فالحضارات تتحاور كما تنتخب الطبيعة أبطالها لاستمرار الحياة ، فالأفكار تتحاور ، قد تتجانس ، وقد تتناطح ، وتبقى الأفكار المتسقة مع العقل وطبيعة الإنسان . فما هو مفهوم الخير في الفكر الإسلامي؟

مفهوم الخير عند أبي نصر الفارابي توفي 330هـ- 948م :

نلاحظ أن مفهوم الخير عند الفارابي قد ورد في أغلب مؤلفاته نذكر منها على سبيل المثال كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة" وكتاب "تحصيل السعادة" وكتاب "التنبيه إلى

(1) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، تحقيق : محمد عبد الهادي : دار الفكر العربي ، بيروت : ط2 ، 1981 ، ص312 .

سبيل السعادة" وكتاب "التعليقات" وكتاب "الدعاوى القلبية" وكتاب "فصول المدني" وأحياناً يسمى "بالسياسة المدنية" .

يعرف الفارابي ماهية الخير فيقول : "الخير بالحقيقة هو كمال الوجود ، وهو واجب الوجود ، والشر عدم ذلك الكمال" [1] .

ونرى الفارابي في تحديده لمفهوم الخير يربط بين الخير وبين الوجود الإلهي ، والوجود يشمل بعنايته جميع الموجودات ، وبالتالي جميع الموجودات خيرة .

يقول الفارابي" إن الخير والنظام هو المقصود بالذات ، أما الشر فإنه لاحق لأمور لم يكن بد من وجودها لسبيل العرض لكونها خيراً" [2] .

فالخير عند الفارابي جوهر الموجودات ، وإن كل ما هو موجود في هذا العالم فهو خير ما لم تدخل فيه الإرادة الإنسانية ، وحينما تدخل الإرادة الإنسانية بالفعل الإنساني يكون هناك خير ويكون هناك شر ، فهو يؤكد على المستوى الإنساني الأخلاقي ، كما يؤكد أن الإرادة والاختيار هما اللذان يحددان طريق الإنسان إما نحو الخير وإما نحو الشر ، ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [3] وهما سبيل الخير ، وسبيل الشر . وفي موضع آخر من مؤلفاته جعل الإرادة جنباً إلى جنب مع تحديد طبيعة العمل الخلقي ، فيقول : "فالخير في الحقيقة ينال بالاختيار والإرادة ، كذلك الشرور إنما تكون بالإرادة والاختيار" [4] .

أما الفضائل الأخلاقية فيقسمها إلى ثلاثة أقسام فيقول : "كل ما هو أنفع وأجل فإما أن يكون أجل في المشهور ، أو أجل في ملة ، أو أجل في الحقيقة ، وكذلك الغايات الفاضلة ، إما أن تكون فاضلة وخيراً في المشهور أو فاضلة وخيراً في ملة أو فاضلة وخيراً في الحقيقة . وليس يمكن أن نستنبط الأجل عند أهل ملة إلا الذي فضائله في تلك الملة خاصة" [5] .

---

(1) أبو نصر الفارابي : التعليقات ، 1962 .

(2) أبو نصر الفارابي : الدعاوى القلبية ، ج1 ، حيدر آباد ، الهند : 1346هـ ، ص11 .

(3) سورة البلد آية 10 .

(4) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص 99 .

(5) الفارابي : تحصيل السعادة ، تحقيق : جعفر آل ياسين : دار الأندلس ، بيروت : 1983 ، ص 9 .

ومعنى ذلك أن يكون للفعل الجميل أو الفعل الخير ثلاث صور :

الجميل أو الخير في ملة ، والجميل أو الخير - ما تعارف عليه المجتمع فصار مشهوراً ، والجميل أو الخير في ذاته ، وكذلك الغايات الفاضلة - أما الفضائل العملية - فهي وفقاً للإرادة الحرة في اختيار الفعل الأخلاقي ، والأخلاق العملية هي الفعل الأخلاقي الجميل الخير .

كذلك نلاحظ نسبية القيم الأخلاقية عند الفارابي سواء كانت داخل المجتمع أو في فترات زمنية مختلفة أو بين مجتمعات مختلفة ، فما كان مثلاً يعد قيماً أخلاقية في مجتمع ما قد لا يعد قيماً أخلاقية في مجتمع آخر ، يقول : "المتوسط والمعتدل في الأفعال قد يكون منها ما هو معتدل لجميع الناس أو أكثرهم في أكثر الزمان أو جميعه ، وقد يكون منها ما هو معتدل لطائفة ما دون طائفة في زمان ما ، وقد يكون ما هو للإنسان في وقت دون وقت"[1] .

مفهوم الخير عند "ابن سينا" توفي 428هـ - 1037م :

ينطلق ابن سينا في مفهوم الخير من مفهومه للعناية الإلهية فيقول : "العناية هي إحاطة علم الأول بالكل ، وبالواجب أن يكون عليه الكل حتى يكون على أحسن نظام"[2] .

يعتقد ابن سينا أن الخير يفيض من المبدع الأول . وهو خير مطلق على العالم ، فكأن كل الموجودات تسبح في بحر من الخير كل منها ينال ما هو جدير به وهو موافق له .

إذن فكيف وجد الشر في هذا العالم؟ يرى ابن سينا أن الوجود المحسوس مختلط بالشر ، غير أن هذا ليس هو الغالب في الوجود لأن الخير مقتضى بالذات والشر مقتضى بالعرض ، ومعنى ذلك أن الإله لا يرد إلا الخير ، فالشر يتولد عن المادة ، ولا يوجد إلا في عالم الكون والفساد . ويذهب ابن سينا إلى أن الله تجلى في جميع الموجودات ، ولولا تجليه لم يكن وجود ولم يكن خير[3] .

---

(1) الفارابي : فصول منتزعة ، تحقيق فوزي النجار دار المشرق ، بيروت ، 1971 ، ص 113 .

(2) ابن سينا : كتاب النجاة ، تحقيق : محي الدين صبري الكردي : القاهرة : ط 2 ، ص474 .

(3) ابن سينا : كتاب النجاة ، المصدر السابق ، ص 469 .

ويرى ابن سينا أن هذا العالم الذي نحن فيه يقتضي وجود الخير مع الشر وهو عالم الكون والفساد . عالم القوة والفعل ، وحيثما توجد القوة يوجد الإمكان والنقص ، أي لا بد من وجود الشر لأنه أقل وجوداً من الخير ، فهو جزء عرضي أما الخير فوجوده كلي ، وأما الآفات التي تنشأ عن الشر فهي ليست ذات قيمة بالنسبة للخيرات الكثيرة ، ولو كان الشر في شيء من الأشياء أكثر من الخير لامتنع وجود ذلك الشيء ، لأن الخير من طبيعته الوجود ، والشر من طبيعته العدم[1] .

وليس في وسعنا أن نتصور هذا العالم الذي نحن فيه خيراً محضاً ، لأنه لو كان كذلك لما كان العالم هكذا ، ولا كان فيه محل لممكنات الوجود ، ولا للفوارق بين الأشياء باعتبار كل شيء فيه خير محض ، كذلك ليس في وسعنا أن نتصوره شراً محضاً ، لأنه لو كان كذلك لكان عدماً ، فلا يمكن إلا أن نتصوره عالماً يراد فيه الخير قصداً ، ويأتي الشر فيه عرضاً وذلك لضرورة يقتضيها الخير[2] .

وعلى ذلك فابن سينا يرى أن الخير موجود في كل شيء ، غير أنه إذا وجد الشر في الجزئيات كان وجوده فيها عرضاً زائلاً ، فلا وجود للخير التام إلا في الأشياء التامة ، فالخير إذن هو الغالب في الوجود ، وهذا يدل على أن ابن سينا يميل إلى استحسان جميع الأشياء ، فمذهبه تفاؤلي حتمي ، وهو الذي قال : "ليس في الإمكان أبدع مما كان" .

أبو حامد الغزالي "ولد 450 هـ- 1059" "توفي 501هـ- 1110م" :

يقول الغزالي في مفهومه للخير في كتابه "المستصفى في الأصول" : "هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة في إطلاق لفظ الحسن والقبح – الأول : أن الأفعال تنقسم إلى ما يوافق غرض الفاعل وإلى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسناً والمخالف يسمى قبيحاً ...

---

(1) جميل صليبا : من أفلاطون إلى ابن سينا ، دار الأندلس ، بيروت : ط3 ، 1981 ، ص 126 ، أنظر أيضاً لنفس المؤلف : تاريخ الفلسفة العربية ، دار الكتب اللبنانية ، بيروت : 1981 ، ص 237 .

(2) عباس محمود العقاد : الشيخ الرئيس ، سلسلة إقرأ ، عدد 46 ، القاهرة : ص 101 .

الثاني : الحسن ما حسنه الشرع بالثناء على فاعله ... **والثالث** : الحسن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسناً مع المأمورات"[1] .

نلاحظ أن الغزالي يستعمل لفظي "الحسن والقبح" بدلاً من "الخير والشر" وأن موقفه من مفهوم الخير يخالف المعتزلة ، فهو يؤكد أن الفعل لا يكون حسناً لذاته ولا قبيحاً لذاته ، ويذهب الغزالي إلى أن الفعل الحسن يقدم عليه الإنسان لأمرين – إما التدين بالشرائع وإما للأغراض ، ولا يقدم الإنسان على الفعل الحسن لكونه ضرورة عقلية . أما الأمر الأول هو التدين – لينتظر ثواباً أو شكراً من الله على ذلك ، وأما الأمر الثاني فهو مجموعة من الأغراض قد لا ندركها من الوهلة الأولى ولا يتنبه لها إلا المحققون ، وهي ما نسميها "مثارات الغلط" وهي ثلاث[2] :

1- **المغالطة الأولى** : أن الإنسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه ، وإن كان يوافق غرض غيره ، فإن كل طبع مشغوف بنفسه ، فيقضي بالقبح مطلقاً ، وربما يضيف القبح إلى ذات الشيء ، ومعنى ذلك أن الخير والشر لا يدركان بالعقل وحده ، فلا بد من الاعتماد على الشرع والعرف . كذلك يرى الغزالي أن ما يعتقده الإنسان اليوم خيراً قد يراه غداً شراً ، وعلى هذا فالقيم عند الغزالي نسبية .
2- **والمغالطة الثانية** : أن تكون حالة الإنسان النفسية مظلمة ، فيرى كل شيء شراً أو قبيحاً مهما كان حسنه ، وهو ما يسمى عند الغزالي "بالوهم" .
3- **المغالطة الثالثة** : وهي استمرار الوهم ، وهو ما يسمى في "علم النفس الحديث" الارتباط الشرطي" وهو أن يعتقد الإنسان في شيء معين ارتبط معه بشيء قبيح فدائماً يكون قبحاً مثل التشابه بين الحبل المبرقش والحية ، أو يكون الشيء قد ارتبط معه بشيء حسن أو خير"[3] .

والغزالي في مفهومه للخير "أشعري المذهب" ، فهو يرى أن كل الأفعال الخيرة التي يقدم عليها الإنسان مثل حفظ العهد ، وكتمان السر ، وإنقاذ الملهوف – كل ذلك يقدم

---

(1) زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت : بدون تاريخ ، ص 90.
(2) نفس المصدر السابق : ص 91 .
(3) أحمد محمد صبحي : في علم الكلام ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 202 .

عليه الإنسان لا لكونه من ضروريات العقل ، ولكن من أجل الثناء والمدح ، والثناء والمديح للنفس لذيذ ، والمقرون باللذيذ لذيذ ، يقول الشاعر :

وما حبّ الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

ويرى الغزالي أنه لا حسن ولا قبح قبل ورود الشرع ، وهل معنى ذلك أنه لا قيمة للعقل قبل ورود الشرع؟ إذن فمن يخاطب الشرع؟ إن الشرع يخاطب العقل ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، وإن صح أنه لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فإن معنى ذلك أن العقل الإنساني لا يصلح لفهم حقائق الأشياء ، إذن فكيف حمل هذا العقل أمانة الدين؟ وإن جد جديد في أمر دنيانا لم يرد في الشرع مطلقاً - فبم نحكم عليه؟ من الطبيعي أن نحكم عليه بالقياس والمنطق - ومن يستخرج ذلك؟ إنه العقل .

وحتى لا نذهب بعيداً نرى الغزالي في موضع آخر يعطي للعقل حقه الطبيعي فيقول في كتابه "معارج القدس" : اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع ، والشرع لن يتبين إلا بالعقل ، فالعقل كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس ... فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل ، فهما متعاضدان بل متحدان ... ولكونهما كذلك قال الله تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ . نور العقل ونور الشرع"[1] .

والقاعدة الأخلاقية عند الغزالي هي أن الخير خير لأنه نافع ، والشر شر لأنه ضار . يقول في كتابه "إحياء علوم الدين" : "إن الكذب ليس حراماً لعينه ، بل لما فيه من ضرر على المخاطب أو على غيره"[2] .

وفي تقسيمه للحلال والحرام - لا يحرم من النبات إلا ما يزيل العقل ، وما كان ضاراً فهو شر ، وما كان نافعاً فهو خير ، لأن الحاكم بالخير أو الشر هو الشرع ، ونلاحظ أن الغزالي في مواطن كثيرة من كتبه يقرر أنه لا علاقة للعقل في حسن العمل وقبحه ، وإن الأمر في ذلك للشرع ، ولكنه يعود للقياس عن طريق العقل ، فالعمل عنده خير إذا وافق الشرع . ويفرق الغزالي في مفهومه للخير في العمل والخير في

(1) الغزالي : معارج القدس ، القاهرة : 1927 ، ص 59 - 60 .

(2) الغزالي : إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت : بدون تاريخ ، ج 3 ، ص 139 .

الاعتقاد ، أو ما يسمى الفعل بالإرادة والفعل دون الإرادة ، كما نلاحظه في مواطن أخرى من مؤلفاته يميل في مفهومه للخير إلى نزعة صوفية [1] .

تعقيب :

بالإشارة إلى ما سلف ذكره نرى أن الخير أساس المبحث الأخلاقي ، وهو موضوع جميع أفعالنا وغاية كل فعل ، ووجدان كل عمل .

وبالجملة - فالخير تبنى عليه مفاهيم الأخلاق ، لأنه المقياس الذي نحكم به على أفعالنا ، فالإنسان جبل بالفطرة على فعل الخير ، أما ما يخص مفهوم الخير في الفكر اليوناني - فقد جاء فكراً عقلياً كونياً ، فيه مفهوم الخير من الفضائل الخلقية المهمة ، ودار محوره بين التجريد والإطلاق ، والنسبية والنفعية المطلقة ، ولكنه على وجه العموم يمثل القيمة الحقيقية لمفهوم الأخلاق جملة .

وفي الفكر الإسلامي - يدفعنا القرآن الكريم للبعد الشمولي لمعرفة قيمة الخير ، ويحثنا على اتخاذه سلوكاً عملياً فيكون مرجعه خيراً ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2] سواء كان عاجلاً أم آجلاً ، بالإضافة إلى ما كان عليه (رسولنا الكريم) من سلوك عملي في فعل الخير .

ولقد ربط الفكر الإسلامي الأخلاقي قيمة الخير بالإرادة والحرية الإنسانية وذلك للأمرين الآتيين :

الأمر الأول : أن الإنسان يختار أفعاله بإرادته ، فلا سلطان عليه في الاختيار .

والأمر الثاني : أنه سيحاسب على ما اختاره من الأفعال سواء كان خيراً أم شراً ، أضف إلى ذلك أن "القرآن الكريم" كان في أغلب المفاهيم القيمية يأتي بمبررات لها ، مثلاً ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[3] .

---

(1) الغزالي : ميزان العمل ، القاهرة ، 1328 هـ ، ص 183 .

(2) سورة البقرة ، آية 183 .

(3) سورة الإسراء 32 .

والفكر الإسلامي نزه الخالق عن أفعال البشر خيراً كانت أم شراً ، وترك الأفعال الكونية للخالق ، والتي هي خارجة عن إرادة الإنسان ، فأفعال الله كلها خير وإن تراءى لنا فيها بعض الشر ، يقول الله تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [1] .

وفي إطار الفكر الإسلامي أيضاً نجد أن المعتزلة قد جمعت بين مفهوم الخير الموضوعي وبين تغير الواقع "تغير الزمان والمكان" ، فالعقل هو الذي يكشف عن ماهية الفعل ، فكان الموقف معتدلاً بين الضروريات الكلية وحيثيات الواقع ، فالفكر الإسلامي يسعى لرفع الإنسان إلى قيمة سامية ، ولكنه لا يتجاهل إنسانيته . إنه يجمع بين شفافية الروح وقدرات العقل ، وبين النفس واحتياجاتها الدنيوية ، وهكذا تتحقق إنسانية الإنسان ، وكيف لا وأن مرجعيته كلام الله وسنة سيد الخلق؟

كما يؤكد الفكر الإسلامي أن العلم بماهية الخير ليس سبباً كافياً للإقدام على الفعل أو الابتعاد عنه ، وإنما المعرفة هي جزء من دواعي الفعل .

ويؤكد الفكر الإسلامي على دور التنشئة والتربية في حمل القيم الأخلاقية ، وأن الإنسان خاضع للمشيئة الإلهية على اعتبار أنه جزء من هذا الكون .

تطور الزمان وتغير مقتضيات الحياة في الحضارة الإسلامية - وهي بيئة صادفت المشكلات السياسية والاجتماعية وما لزم عنها من امتزاج حضاري وثقافي - أدى إلى خلق بيئة تدعو للاجتهاد والتفكير ، ومعالجة القضايا الفكرية والفلسفية التي انبثقت عن هذا الزخم الحضاري ، فالحضارة الإسلامية حضارة مفتوحة وليست مغلقة .

في الفكر الإسلامي - القيم مرتبطة أشد الارتباط بعلوم الدين ، فاقترن الإيمان بفعل الخير ، وهذا يؤكد الصلة الوثيقة بين الإيمان والقيم الأخلاقية كشرط للثواب ، فالقيم الأخلاقية في الفكر الخلقي الإسلامي لها مردود دنيوي ومردود أخروي ، وهذا أمر غير وارد في الفكر اليوناني .

الأوامر والنواهي في الفكر الإسلامي - ليست متعلقة بشعائر تعبدية فقط ، ولكنها تنطوي على فضائل وقيم أخلاقية مردودها للإنسان نفسه وسط مجتمعه فيوصف بأنه كريم وعادل وخير ... الخ . كما أكد رسولنا عليه الصلاة والسلام أن من أهداف رسالته الهدف الخلقي حيث قال : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

---

(1) سورة البقرة آية 216 .

لا شك أن فلسفة القيم الأخلاقية في الحضارة الإسلامية قد تأثرت بعض الشيء ، بالفكر اليوناني ، ولكن هذا لا يعني إخفاء ملامح الفكر الأخلاقي الإسلامي ، إن نتائج الفكر الإسلامي كان انبعاثاً داخلياً عقلياً يعبر عن الروح الحضارية للأمة الإسلامية .

إن فلسفة القيم الأخلاقية الإسلامية وإن كانت قد استخدمت بعض المفاهيم والدلائل الفلسفية اليونانية - إلا أن هذا الاستخدام كان لغاية تختلف تماماً عن الفكر اليوناني ، فقد يجد الباحث نوعاً من الاتفاق في بعض المفاهيم الأخلاقية بين المفكرين ، غير أن الغاية والقصد تختلف بينهما تماماً ، فكثير من المفكرين اليونانين ينظرون إلى العالم نظرة سكونية "إستاتيكية" . في حين أن الفكر الإسلامي ينظر إلى العالم نظرة دينامية ، بل إن الدين في نظره أساس ضروري ، فلا بد للمفكر من التوفيق بين الدين والفلسفة ، وهذا التوفيق بين الشرع والعقل أبرز ما يتميز به الفكر الإسلامي من صفات ، وذلك للاعتقاد بأن الحقيقة واحدة والإيمان بوحدة العقل والدين والفلسفة لا يحتاج إلى براهين وأدلة ، وإن كان هناك من الفلاسفة في الفكر الإسلامي من نسج تفكيره على نمط الفكر اليوناني - فإن هناك فلاسفة آخرين في الفكر الإسلامي نقدوا الفلسفة اليونانية ، وجاوزوا الذي وقف عنده الفكر اليوناني ، وليس أدل على ذلك من تأكيد حرية الإنسان وقيمة الخير الموضوعية في الفكر المعتزلي وتأكيد العناية الإلهية وتنزيهها عن أي صفة في الفكر الأشعري ، وصوفية الغزالي .

للفكر الإسلامي ابتكارات - فقد كشف في الفلسفة اليونانية عن نواح لم تلحظ من قبل ، وأضاف إلى هذه النواحي مسائل إلهية وإنسانية واجتماعية ، وإن كانت عقول هؤلاء المفكرين قد تأثرت بالفكر اليوناني - فإن قلوبهم قد ارتوت من ينبوع القرآن والسنة ، فإن كان في الفلسفة الإسلامية أخذ وتأثير بما قبلها - كان فيها أيضاً خلق وابتكار أضافت به جديداً إلى الفكر الإنساني ، فالحضارة الإنسانية هي امتزاج وتفاعل للفكر الإنساني ، ولكن لكل فكر مميزاته .